فى ضيافة الهلالى باشا(*)

للدكتور زكى مبارك

كانت جريدة الأهرام نشرت أن جماعة من الوزراء سيزورون المنوفية ، وأن فى منهاج الزيارة شهود اجتماع يعقده النواب والشيوخ فى سنتريس ، فاستفسرت من حضرة الأستاذ شافعى البنا عن المراد من ذلك الاجتماع ، فقال إنه للترحيب بالوزراء وهم فى الطريق إلى عاصمة المنوفية ، وإنما اختيرت سنتريس لأنها الملتقى لبلاد مركز أشمون ، ولأنها أول بلد على بحر شبين بعد عبور القناطر الخيرية

قلت لنفسى : إن اسمى يخطر فى البال حين تذكر سنتريس ، فما الذى يمنع من دعوة وزير المعارف للتفضل بزيارة دارى هناك ؟

وكان المفهوم عندى أن الدعوة ستقابل بالاعتذار الرقيق ، فقد كنت أعرف أن الوقت لا يتسع للزيارات ، ولكن الهلالى باشا أعزه الله تقبل دعوتى بأحسن القبول ، كأنى وجهتها إليه وهو فى أسيوط وطن الشهامة والجود

وفى مكتب الوزير دار الحديث على الصورة الآتية :

— أهلاً بنابغة سنتريس !

— هذا اللقب لا يكفى يا معالى الوزير فى تحيتى

— وكيف ؟

— لأن الأستاذ عباس حافظ هو الذى منحنى هذا اللقب فى مناوشة أدبية ، وهو يريد أنى نابغة سنتريس فقط ، ولست مفكراً عالمياً ، كما أريد لنفسى . وللأدباء مسالك تعجز عنها الشياطين !

— كنت أحسب أنك منحت هذا اللقب لكثرة ما تتحدث عن سنتريس

— لو صح هذا لجاز أن أكون أيضاً « نابغة أسيوط » فلى فيها قصائد ، وسأنشر عنها كتاباً بعد حين

— أسيوط أوحت إليك أشياء ؟

— هى مدينة موحية ، ولعلك توافق على أن لشارع الهلالى هناك جاذبية تفوق الوصف ، وما دخلت أسيوط إلا جملته طريق إلى النيل

— لذلك الشارع تاريخ ، فقد كان مع الأراضى التى حواليه بستاناً من بساتين جدى ، وكان البستان هو الممر الموصل بين قصره بالمدينة ودهبيته بالنيل ، فأين أنا من تلك الحياة ؟ وأين منى ذلك الثراء ؟

— إن ثروة جدك لم تضع ، يا معالى الوزير ، فلها صورة باقية هى علمك وفضلك ، وفى بعض الآثار أن ذكاء المرء محسوب عليه ، فالذكاء رزقك ، وهو أطيب الأرزاق

— من فضل الله على أهل الأدب أن يحبب إليهم المعانى

— وفى سبيل المعانى سترى أنى بخلت على جيبى بثمن شجرتين عظيمتين قائمتا فى مدخل البيت

— وما حديث الشجرتين ؟

— إن تكلا باشا صاحب جريدة الأهرام بنى فى صواحى سنتريس قصراً لا يعلو عليه غير هاتين الشجرتين ، فأنا أعزهما كل الإعزاز لأطول بهما قصر الرجل الذى قلت فيه :

ينازعنى فى سنتريسَ منـــازعٌ
له من جَدا (الأهرام) مرتبَعٌ خَصِبُ

إلى آخر القصيدة التى سأثبتها فى الطبعة الثانية من ديوانى

— سأزور دارك ، مع الشكر لدعوتك الكريمة ، وإن كان مكانى فى رحلة الوزراء إلى المنوفية مكان الضيف

— وزير المعارف لا يكون ضيفاً بالمنوفية ، لأن المنوفية تمد مصر بجماهير كثيرة من المعلمين ، وأنت وزير المعلمين ، وسيكون الجميع ضيوفك هناك

كان يجب أن أدعو الوزراء الذين يشتركون فى رحلة المنوفية ، ولكن كيف أدعوهم وقد ضاق الوقت ؟

دعوت معالى الأستاذ فؤاد باشا سراج الدين بالتليفون فتلطف بالقبول ، ولم يفته أن ينص على أن اسم سنتريس اسم جميل

ومررت على معالى وزير العدل ، وهو رجل أبغضه بعض البغض ، لأنه يريد بجهاده ونضاله أن يكون الرجل الأول فى المنوفية لا فى سنتريس ! فقال حين رآنى : ما كنت أعرف أن الهلالى باشا يعزك إلى هذا الحد . ففهمت أن الهلالى باشا حدثه عن دعوتى قبل أن أصل إليه بلحظات

(*) هذا الفصل رياضة للقلم على الوصف الخالى من المبالغات ، وهو أصعب الأوصاف

ثم رجوت الأستاذ شافي البنا أن ينوب عني في دعوة من لم أستطع دعوتهم لضيق الوقت ، وهو أخ نعمت بمودته شهوراً طوالاً في غياهب الاعتقال

* * *

في عصرية اليوم الذي يسبق يوم الاحتفال دخلت سنتريس لأرى كيف استطاع أبنائي بمعونة بني أعمامهم إعداد حديقة الدار لاستقبال الوزراء

وهنالك وجدت نواب مركز أشمون يتحاورون فيما ينبغي أن يقال

سمعت كلمات لم تعجبني ، فسارعت إلى تفنيدها فيما بيني وبين نفسي ، لأتخذ منها مادة أنتفع بها في إحدى المقالات ، ولأشير عليهم بإخفائها عن الوزراء ، إن خفت أن يقولوها في حضور الوزراء .

فقلت في نفسي : وما العيب في ذلك ؟ هل نُقِلتْ أطيان المنوفية إلى القليوبية أو الغربية ؟ إن الذي وقع لا يزيد عن أن العائلات الكبيرة تفرعت إلى عائلات صغيرة ، ومن هنا تعددت المِلكيات في المنوفية ، وهذا باب من قوة الشخصية ، فلكل فلاح في هذا الإقليم وجود صحيح ، وهو لهذا صورة نموذجية من الرقي المنشود

وسمعتهم يقولون : يجب أن نعرض مطالب المنوفية على الوزراء

فقلت في نفسي : الأفضل أن يقال إن المنوفية في استعداد لمعاونة الوزراء على إصلاح سائر الأقاليم ، لأنها تملك أكبر عدد من المفكرين

والتفتُّ فرأيت الأخ العزيز محمد أفندي محمود عمدة سَمَلاي يجذب يدي ليُسِرَّ في أذني كلمات ، فما تلك الكلمات ؟

هو يرى أن نقيم الزينات على باب البيت

وأنا أرى أن يبقى البيت بصورته الطبيعية ، لأني أبغض الحسن المجلوب

ثم غلب رأيه وحضر الفراشون لتزيين مدخل البيت ، فسمعت منهم كلمات غير مفهومة ، ولكني تظاهرت بالعلم وتركتهم يتصرفون في حدود ما يحسنون

« شُوَيَة كُرُنات ، شوية كُرُنات »

فما هذا من الوجهة اللغوية ؟

الكلمة الأولى مفهومة ، فالشُّوَيَة مؤنث الشُّوَيّ ، والشوي مصغر شيّ المخفف عن شيء ، ولكن ما « الكُرُنات » ؟

دار ذهني مرة ومرات إلى أن عرفت أنها منقولة عن الكلمة الفرنسية Couronne وعلى هذا تكون الكُرُنات هي التيجان

لا بأس ، فللأدب الفرنسي في عقلي ديون ، ومن حقه أن يزور داري مع الوزراء .

* * *

أما بعد فنحن في صبيحة الاحتفال ، وقد تجمعت خلائق في سنتريس يعجز عن عدّها الإحصاء

وهذا هو « البُرْجاس » ، فما البُرجاس ؟

هو لعب الخيل ، وتلك كلمة قاموسية هُجرت في أكثر البلاد ، وبقيت مأنوسة في سنتريس

لم يكن منظوراً أن يحضر الوزراء في الميعاد . ومن الذي يَفرض على رجال مكدودين أن يحضروا يوم راحتهم في الميعاد ؟ لم يبق إلا أن تتمتع تلك الجماهير بلعب الخيل ، وفي لعب الخيل متعة ذوقية تذكّر أبناء المنوفية بماضيهم في الفروسية

وبجانب لعب الخيل تقوم المزامير والطبول في لونها القديم والحديث : فتسمع مرةً « يا نخلتين في العلالي » وتسمع مرةً « بالك مع مين يا شاغل بالي » .

ثم تنظر فترى بُنَيّات المدارس الأولية من سملاي وسنتريس فتلتفت إلى ماضي صِباك ، يوم كنت تخطب طِفلةً وهي في المهد ، لأنك سمعت أن أمها من رائعات الجمال ...

أما الأطفال فقل فيهم ما تشاء . ولقد سرّني أن أرى أطفال سملاي وسنتريس في صحة وعافية . وأي أطفال ؟

الحمد لله على نعمته ، فما فيهم سقيمٌ ولا ضعيف ، وإنما هم الطلائع لجيل سيكون برعاية الله أقوى الأجيال

إن وزارة الصحة لا تخاف على سنتريس حين تتعرض بلاد مركز أشمون لإحدى الآفات ، فهواء سنتريس شفاء من كل داء ، وهل تذكر وزارة الصحة أن بلدنا كلفها شيئاً من المتاعب ؟

إن الله يعلم أن سنتريس تعتمد على رعايته السامية ؛ وإن الله يعلم أن أهل سنتريس أحوج الناس إلى رعايته السامية ، فهو بكرمه وفضله ولطفه يقيهم الأسواء

قضاء لحظة تحت سماء سنتريس تُذهب همومي ولو كانت أثقل من الجبال ، فلهذا البلد روحانية منقولة عن اعتماد أهله على

واهب الخيرات والثمرات ، ورعاية الله لمن يتوكلون عليه لا تحتاج إلى بيان .

* * *

حضرت ثُلَّة من الشُّرطة للمحافظة على النظام ، ولكن الأهالى لم يحوجوهم إلى تعب ، فقد عرف كل فرد واجبه ، وسادت الرغبة فى أن تكون الحفلة غاية فى الصفاء

ومع هذا أنظر فأجد رئيس نقطة النعناعية يشكو من أن أحد أقربائى يحاول الشغب فى الاحتفال ، وبعد التحرى ظهر أن حامد أفندى عثمان يطلب من الحاضرين إمضاء عريضة ترفع إلى وزير المعارف ، ليتفضل الوزير بإنشاء مدرسة ابتدائية فى سنتريس

عند ذلك ابتسمت وقلت : يسرنى أن يعرف حضرة الضابط أن معالى الهلالى باشا يحب هذا النوع من الشغب . والمطالبةُ بإنشاء مدرسة ابتدائية فى سنتريس شغبٌ لطيف . ثم أخذت العريضة لأقدمها إلى معالى الوزير بنفسى ، وستكون أجل هدية أقدمها إليه

وأقبل الخيّالة يَعدُون ويَركضون تبشيراً بقدوم الزائرين ، فهتفت الجماهير بحياة جلالة الملك ، وصدحت الموسيقا بالسلام الملكى ثم تعالت الهتافات بأسماء الوزراء وباسم رئيسهم الجليل ، شفاه الله وعافاه

كان مع الركب جماعة من المحررين والمصورين ، وهم جميعاً أصدقاء ، وكان فرحى بلقائهم فرح الأديب بالأديب

وبعد تناول القهوة وقف النائب المحترم سليم أبو العلا فألقى خطبة طويلة تحدث فيها عن أعمال الذين حضروا من الوزراء ، وقد قوبلت خطبته بالإعجاب

وكانت النية أن يخطب الأستاذ عبد البر زهران ، ولكن الوقت لم يتسع لما يريد . ثم نهض معالى الأستاذ صبرى باشا أبو علم فألقى كلمة لطيفة شكر بها نواب مركز أشمون ، واعتذر بلطف لمن ضاق الوقت عن سماع ما أعدوا من الكلمات الجياد

وفى تلك اللحظة تموَّجت تلك الجماهير لتزور دارى مع الوزراء ، فكان منظر لن تنساه سنتريس ، ولو طال الزمان

لقد أقيمت فى بلدنا حفلات كثيرة سمع فيها أهل بلدنا أصوات رجال مشاهير من رؤساء الوزارات ، ولكنى أستبعد أن يكونوا فرحوا بقدر ما فرحوا فى هذا اليوم السعيد

أمرُ الوزراء الوفديين عجَبٌ فى عَجَب !! إنك تتقدم كيف شئت فى المجالس والمنتديات ، ولكنك لا تستطيع صدَّ الجماهير عن الوفاء لهم إلى أبعد حدود الوفاء

لم أكن وفديًا فى أى يوم ، ولا دعوت هؤلاء الوزراء للتفضل بزيارة دارى إلا لغاية أدبية ، هى أن تضيفهم سنتريس ، وهى المكان الذى اختاره للاحتفاء بهم نواب مركز أشمون ، فما الذى يملك من السحر هؤلاء الوفديون ؟

كان السرادق الذى أعدَّه النواب يضيق برغم رحابته عن إعلان الفرح بقدوم أولئك الوزراء ، فلما وجدت الجماهير فرصة للترحيب بهم فى حديقة الدار تدافعوا تدافع الأمواج ، وأعلنوا فرحهم بهتاف يشق أجواز السماء

وفى هذا الزحام وقف وزير المعارف ليسمع النشيد :

سنتريسُ فى سرور وهنـــاء وحبور

وقف برجاء من الأديب محمود عبد العزيز ، برغم ذلك الجو الضجّاج

أين الوقت ؟ أين ؟

إن الوزراء سيصلون الجمعة فى شنوان ، فمن الواجب أن نعفيهم من الخطب الطوال

قال الأستاذ عبد السميع الظوخى فقرات من خطبته ، وقال الأستاذ محمد شما أبياتاً من قصيدته ، ودعانى وزير العدل إلى أن ألقى خطبتى ، فماذا أقول ؟

قلت : إن الحاضرين جميعاً فى ضيافة الهلالى باشا ... وطويت خطبتى . فما الذى كان فى الخطبة المطوية ؟

الجواب عند شجرات الورد فى حديقة دارى ، وهى قد حدثتنى أن الزهر يعيش يوماً أو يومين ، أما جذور أشجار الورد فهى فى صلابة الجلمود ، ومنها تتخذ « البيبة » التى تعجز عن إحراقها النيران

دعابة الهلالى باشا هى زهر الورد

وصلابة الهلالى باشا هى جذع الورد

وهل منعت وداعة هذا الرجل من أن يكون أحزم الرجال ؟

زكى مبارك